المنفى ...

تعريب

للفيلسوف الروسي تولستوي
بقلم الأديب مصطفى مشعل

كان يقيم فى فلاديمير تاجر ثرى يُدعى « إيفان دتريش اكسينوف » يذكره سكان هذه القرية ، إذ كان فى شبابه سكيراً معربداً يثير الإعجاب فى صدور نسائها بشعره الطويل اللامع وصوته الجميل الحلو ، ولاشك أن فتيات القرية الطائشات قد فتنهن حديثه قبل أن يؤخذن بقوامه الطويل وصدره القوى العريض .

ولكن « اكسينوف » لم يلبث أن استهواه الوقار وحببت إليه الرزانة فترك الطيش وودع لهو الشباب ومفاسده ، وسكن إلى بيته بعد أن تزوج ينشد حياة الهدوء والراحة ، ويعمل لإسعاد أولاده وإرضاء زوجه .

وفى أحد أيام الصيف القائظ عزم التاجر على الرحيل إلى قرية (ناذنى) لقضاء بعض أعماله التجارية ، فأعد عدته وحيا زوجته وهم بالخروج ، ولكنها استوقفته قائلة :

— إيفان ... لقد حلمت الليلة حلماً مزعجاً ... لا ترحل اليوم ...

فقهقه التاجر بشدة وهو يقول :

— بل قولى إنك تخشين أن أعرج فى طريقى على حانة أو أغازل امرأة ...

— لا ... لقد حلمت أنك عدت إلى المنزل بعد رحلتك هذه ، وشعرك قد تحول إلى لون الثلوج البيضاء ! ...

ولكن « اكسينوف » لم يهتم ، إذ صور له الخبث أنها ابتدعت هذا الحلم ابتداعاً كيما تبقيه بجانبها شأن بنات جنسها لا يردن أن يبتعد عنهن رجالهن .

وهكذا تركها ومضى إلى البلدة التى يريدها حتى إذا بلغ منتصفها رسمت له الأقدار خطة ونفذتها ، إذ ألقت أمامه فى الطريق صديقاً قديماً كان يعرفه دعاه لأن يقضى الليلة معه فى فندق صغير

وأخذ كل منهما يقص على الآخر ما مر عليه من أيام حلوة أو مرة حتى إذا تأخر عليهما الوقت صعد كل إلى حجرته

كان على « اكسينوف » أن يستيقظ فى فجر الصباح المقبل ليواصل رحلته المتعبة فنام قليلاً ثم استيقظ ولما تتجاوز الساعة الثانية بعد منتصف الليل فأمر خادم الفندق أن يهيء له جواداً وعربة ، ثم انطلق فى جوف الليل البهيم بسرعة جنونية ، فقطع حوالى خمسة وعشرين ميلاً لم يستطع الجواد المسكين أن يتابع مسيره بعدها

وفى نهاية هذه المرحلة وجد « أكسينوف » فندقاً صغيراً وضع فيه رحاله وجلس يتناول فطوره بشهية منتظراً إشراق الصبح الجميل ، وبينا هو يتجه ببصره إلى أقصى الطريق روعته أصوات عربة قادمة وهى تدق أجراسها ذات الصليل المرتفع ، أخذ يرقبها حتى تبينها فإذا هى عربة البوليس يركبها ضابط وبجانبه جنديان شاكيا السلاح ، فلم يهتم

« اكسينوف » بهم إذ كان التعب قد هاجه والنوم ابتدأ يداعب جفونه

ولكن الضابط تقدم منه يسأله عن اسمه وكيفية قضاء ليلته ... ولم هو منفرد ... وأين صديقه الذى نام معه فى فندق واحد ؟ ... وأجابه التاجر على ذلك كله بحسن نية وأردف قائلاً :

— هل لك فى قليل من الشاى ؟

ولكن الضابط لم يجبه وأخذ يسأله بخشونة عن اسمه وصناعته وغير ذلك من أسئلة رجل البوليس عند ما يمثل أمامه مجرم ، فعجب التاجر من كل هذه الأسئلة المتلاحقة ، ولكنه وصف له كل ما فعله ولماذا غادر الفندق قبل الصباح ... ثم سأله :

— ولكن لم كل هذه الأسئلة ؟ إنك تسألنى كما لو كنت قاتلاً أو سارقاً ! ...

ولم يجب الضابط بأكثر من قوله :

— لقد وجد صديقك التاجر مقتولاً هذا الصباح ، وأنت الوحيد الذى تتجه إليه الشبهة

ثم نظر إلى رجليه وأمرهما أن يفتشا حقائبه ، وعندئذ ضحك اكسينوف من سذاجة هذا الشرطى وسمح له بما أراد ، وأخذ الجنديان يقلبان متاعه وهو ساكن لا يتحرك . على أن هدوءه لم يلبث أن انقلب رعباً وخوفاً ، ذلك أنه شاهد أحدهما يخرج من حقيبته خنجراً يقطر منه بعض الدم اللزج

وعند ما رأى الضابط هذا المشهد صاح فى التاجر :

— كيف تعلل وجود هذا الخنجر فى حقيبتك ؟

— لا أعرف ... لا أعرف ... إنه ليس لى

وأمر الضابط رجليه ، فوضعا القيد فى يده ثم قذفا به إلى عربة البوليس كما لو كان قاتلاً حقاً ...

كان اكسينوف بريئاً ... ولم يكن الخنجر خنجره ... ورغم أنه كان واثقاً من ذلك لم يستطع أن يمنع جسمه عن الارتعاش ، وصوته عن الاضطراب ... وأخيراً عن البكاء . لقد أخذوا كل ماله ... ثمانية آلاف وروبل هى كل ما يملك من ثروة ... وها هم أولاء يرسلونه إلى أقرب سجن ليلقوه فيه ... ولاح له المصير الاسود الداكن الذى ينتظره ، فعاد مرة أخرى إلى البكاء بعد أن كف عنه . وراحت إشاعات القبض عليه تسرى مسير الرياح ، وصقلتها ألسنة الرواة وشفاه المحدثين ، حتى إذا بلغت أسماع زوجه المسكينة خيّل لها حقا أنه قاتل مجرم فلم تعرف ما تفعله وضاقت الدنيا فى وجهها

ها هى ذى ترى زوجها ملقى فى أعماق السجن وليس لديها ما يكفل لها السفر مع أولادها إليه ... وها هى ذى تجد المستقبل حالكاً كسواد الليل وتحاول الوصول إلى ثغرة من النور فيه فلا توفق

لم تجد المسكينة إلا إراقة دماء وجهها فطلبت من أصدقاء زوجها ما تستطيع الوصول به إلى حيث ألقوه متهماً بأشنع تهمة ، حتى إذا بلغت السجن منعوها عن رؤيته ، فراحت ترجو وتتوسل وتمعن فيهما إلى أن استطاعت أن تنال إذناً برؤيته

يا للحظة التى شاهدت فيها زوجها مرتدياً ملابس السجن كاللصوص والقتلة ! لم تستطع احتمال هول ذلك اللقاء فأغمى عليها ... وعند ما أفاقت جلست بجانبه تلتقط أنفاسها وهى تبكى بحرقة قاتلة ... قصت عليه كل ما فعلته منذ رحيله ، وحدثها هو بالحقيقة كاملة ... وأخيراً سألته من خلال دموعها المنهمرة على خديها الذابلين:

— والآن ماذا سنفعل ؟

— ليس أمامنا سوى القيصر نشكو له

— لقد أرسلنا له عريضة فلم تحز القبول

لم يجب (أكسينوف) بل رمق الأرض بنظرة تائهة ذاهلة بينما اقتربت زوجته هامسة :

— أوه يا أكسينوف ! ليتك لم تخرج فى هذا اليوم ... لقد حلمت أن شعرك سينقلب أبيض كثلوج سيبريا ... ولكنك ضحكت وسخرت منى

وأخذت تعبث بشعره فى حنان ورفق ثم قالت :

— فاينا ... أيها العزيز ... قل لزوجتك الحقيقة ... اعترف لها هل فعلت ذلك ؟

بكى الرجل ورفع رأسه ينظر إليها بحدة صائحاً :

— أنت ! ... حتى أنت ! تظنين أننى قتلته ؟

وأطرق إلى الأرض يئن ويتوجع فلم يفق إلا على صوت الحارس يطلب انصراف الزائرين ... وكان الوداع ... الوداع القاسى الذى لم يستطع أحدهما أن يمنع الدموع المنهمرة من عينيه أثناءه

كان الوداع الأخير

وما كادت الزوجة المكلومة تتوارى عن عينى (أكسينوف) حتى رفع وجهه إلى السماء قائلاً :

— إن الله وحده الذى يعلم الحق من الكذب إليه وحده يجب أن نضرع ... وله يجب أن نشكو ونرجو

ومنذ تلك اللحظة لم يتظلم إلى إنسان ولم يسأل مخلوقاً

وأخيراً صدر عليه الحكم فنفوه مع آخرين إلى سيبريا حيث مكث هناك ستة وعشرين عاماً انقلب فى أثناء أعوامها الطويلة من سواده الجميل إلى بياض ناصع ... تماماً كلون الثلوج فى سيبريا ، وتضخمت يداه من كثرة العمل ، وانقلب شبابه الغض شيخوخة هرمة ، وزال ما كان يتمتع به من جاذبية طالما حببته إلى قلوب نساء قريته ... كان يمشى ببطء ... لا يتكلم إلا قليلاً ... بل نادراً ولم يضحك أبداً ولكنه أحياناً كان يبتسم ابتسامة لا معنى لها

تعلم فى مدة سجنه صناعة الأحذية وكانوا يعطونه أجراً ضئيلاً تمكن بادخاره من شراء نسخة من كتاب (حياة القديسين) . فكان يجلس كل أوقاته يطالع فيه ... وفى أيام الآحاد يتوجه إلى شبه الكنيسة المقامة هناك فيستمع إلى دروس الوعظ ، وينشد معهم الأناشيد الدينية بصوته الذى كان يحتفظ بالبقية الباقية من جماله

كان مستقيماً ... هادئاً ... وقوراً ... فأحبه الجميع وتعودوا على طاعته والاستماع لمشورته ، حتى بات الحاكم بينهم لا مرد لحكمه ، وبات الجميع يعطفون عليه وينادونه كأنه أبوهم الكبير

وكرت الأيام تسير على وتيرة الملل والسأم حتى جيء إلى المنفى برجل ارتكب جريمة استحق عليها ذلك ، فاجتمع حوله المنفيون يسألونه ويتنسمون أخبار العالم ... أما « أكسينوف » فقد جلس بجوار (الوارد الجديد) يستمع فى صمت وفى تفكير ... وراح هو يقص عليهم قصته ولكنهم كانوا متشوقين لمعرفة اسم القرية التى جاء منها ليسألوه عن أخبار ذويهم ، ولما لم يقل لهم سألوه :

— أخبرنا ... من أين أتيت ؟

فأجاب :

— من قرية « فلاديمير » أيها الرفاق ... واسمى هو « سيمونيش »

وعند ذلك رفع « أكسينوف » وجهه وقد برقت عيناه سائلاً :

— أخبرنى . . . هل تعرف شيئاً عن أسرة التاجر « اكسينوف »

— طبعاً ... إنهم أغنياء جداً ... وأبوهم هنا على ما أعلم

ولكن عرفنى أيها الأب كيف جئت إلى هنا ؟

كان « أكسينوف » لا يرغب فى الحديث عن نفسه .. وما جدوى الحديث عن النفس ؟.. ولكنه عند ما عرف أن هذا الرجل من قريته ، بل ويعرف كل شىء عن أسرته اقتنع بقص قصته عليه . . . حكى له كيف جاءوا به إلى السجن ظلماً وكيف اتهموه بقتل صديقه كذباً . . . وكيف دسوا له خنجراً دامياً .

وعند ما فرغ اكسينوف من قصته لاحت الدهشة فى عينى الرجل وتمتم بصوت خافت :

— إذن هو أنت أكسينوف . . . حقاً إنه من الغرابة أن نلتقى ...

وعند ما تقابلا مرة أخرى سأل السجين أكسينوف :

— ألا أستطيع أن أودى لك خدمة ؟

— ترى هل عرفوا القاتل الحقيقى ؟ ...

— لقد وجد الخنجر الذى قُتل به صديقك فى أمتعتك فمن ذا الذى وضعه فيها ... ؟

شعر أكسينوف أن محدثه يعرف أكثر مما يظهر ··· بل قد يكون هو الذى وضع ذلك السلاح الملعون فى أمتعته دون أن يشعر . . . فهز رأسه ببطء ومضى فى حاله ...

أى أفكار ناء تحتها المسكين وهو راقد فى فراشه يفكر ... لقد أخذت الصور تتزاحم على رأسه الكليل ··· رأى زوجته وهى تحدثه ··· وهى تضحك ... كانت تحلق دائماً فى الفضاء ... شاهد أطفاله صغاراً كما تركهم ··· أحدهما لم يزل فى مهده ، والآخر يكبره بقليل ··· وسبحت أفكاره وحلقت فى اللانهائية . . . تذكر كيف رحل رحلته المشئومة ، وكيف قابل صديقه ، وعربة البوليس وهى تدوى بأجراسها . . . وأخيراً . . . القيد وهو يطوق يديه ... تراءت له الأعوام الطويلة التى قضاها فى المنفى . . . تلك التى أبدلت شبابه كهولة . . . اللصوص ... اللصوص ... لقد سرقوا منه العمر كله فما بقى منه شىء ...

شعر أنه احتمل العذاب بدلاً من «سيمونيش» ذلك السجين الجديد الذى وثق « اكسينوف » من حديثه ونظراته من أنه هو القاتل . . . فى ذلك الوقت شعر بعذاب الأعوام التى كرت فى الشقاء والتعب يتجمع ليرسم له صورة مروعة كيما ينتقم ، فلم ينم فى ليلته تلك ، حتى إذا كان الصباح خرج مبكراً يسير فرأى « سيمونيش » جاثياً بقرب السور يحفر حفرة كبيرة ثم يغطيها بقطعة من الصفيح ... شاهد كل ذلك ثم سار ببطء دون أن يتكلم ، ولكن سيمونيش لحق به وأمسكه قائلاً :

— إننى أحفرها لأستطيع أن أهرب عند الفجر ... وإننى أطلب منك الصمت أيها الأب ... سنهرب سوياً ... أما إذا اعترفت لأحد فإنهم سيسلبوننى الحياة ولكن بعد أن أكون قد قتلتك

نظر أكسينوف بكره نحو ذلك الشخص الذى سلبه الحياة وقال :

— شكراً لك ... ليست لدى رغبة فى الهرب وليست هناك فائدة من قتلى ... لقد قتلنى حياً ذلك الذى وضع خنجره فى حقائبى ... من يدرى ؟ ربما

كنت أنت ... إن الله هو الذى يعرف

وسار فى طريقه وفى عينيه دموع حائرة

واكتشف مدير السجن الحفرة فراح يسأل الحرس والنفيين دون جدوى فلم يكن يعرف من أمرها غير أكسينوف وحافرها

ولما يئس نادى أكسينوف وسأله إذ كان يعهد فيه الصدق :

— أيها الأب من الذى حفر تلك الحفرة ؟

كانت أمامه فرصة يستطيع أن ينتقم فيها من ذلك الذى دفع به إلى السجن ولكنه ناجى نفسه :

— هل أنتقم منه ؟ سيشنقونه ... وقد يكون ظنى خاطئاً إذ قد لا يكون هو ... أى فائدة تراها ستعود عليه إن هو فعل ؟

وطال صمته بينما كان (سيمونيش) ينظر إليه بخوف ... وأخيراً تكلم :

— إنك يا حضرة المدير بشر مثلى ... ولقد أقسمت ألا أشكو لبشر أو أشكو بشراً ... وفى استطاعتك أن تفعل بى ما شئت فلن أنطق باسم الفاعل ...

وفى تلك الليلة لم ينم أكسينوف .. كان يفكر ويفكر ... وفجأة شعر بأنفاس قريبة منه فقام من فراشه فراعه أن يرى سيمونيش أمامه فصاح :

— ماذا تريد أيضاً ؟

— إيفان اكسينوف ... إننى أطلب غفرانك

— من ماذا ؟

— أنا الذى قتلت صديقك ووضعت الخنجر فى حقيبتك

لم يعرف ما يقوله ... وارتجف وهو ينازع أحاسيسه بينما سجد سيمونيش صائحاً :

— اغفر لى ... من أجل الله ... امنحنى غفرانك ... سأعترف لهم وسيطلقون سراحك

فأجاب اكسينوف ببطء :

— إنه من السهولة أن تتحدث الآن عن إطلاق سراحى ... ولكن تصور ستة وعشرين عاماً أقضيها هنا ... كيف أخرج الآن ؟ وهل سيعرفنى أولادى ؟ .. لا ... لن أخرج

لم يجب الآخر بل ضرب الأرض برأسه باكياً وهو يصيح كطفل صغير :

— إيفان ... اغفر لى ... لم أعرف أننى أدفعك نحو هذا المصير ... إننى أندم ... أقسم لك ... أوه ... اغفر لى ... اغفر لى أيها الأب

وراح يبكى بكاء مراً .. فبكى اكسينوف معه وهو يقول :

— ليغفر الله لك أيها الذى هدمت هنائى وسعادة أسرتى ... ليغفر الله لك أيها الذى مكثت طوال أيامى أدعو الله أن ينتقم منك دون أن أعرفك . ولكننى الآن أرثى لك ... لطالما اشتاقت نفسى إلى الخروج من هذا السجن إلى حيث منزلى وأسرتى أما الآن فليست لدى أية رغبة فى الحياة ... ماذا سيفعل العالم برجل مهدم عاش كل ذلك العمر الطويل بعيداً عنه ؟ . إننى لا أود الحرية بل أريد قضاء بقية أيامى أعيش متأملاً فى سر عدالة الله ... ومعرفة خواطر ونفوس من يحيطون بى ...

وعند ما صدر الأمر بإطلاق سراحه بعد أن اعترف سيمونيش بجريمته كان ينازع سكرات الموت ...

لقد بكاه الجميع ... وحزنوا عليه ... ولكن سيمونيش كان أكثرهم بكاء وأشدهم حزناً وهو يودع جثمانه الوداع الأخير ...

مصطفى مشعل